إنَّ المعالي مُـذْ نشـأنَ سحـائبٌ … تسقي ثـرَاكَ عدوُهـا وَرَوَاحَهَـا
أخْضَلْتَ من مـاءِ الحياةِ مـرادَهـا … فعَـدَتْ تُبَوِّىءُ في ذَرَاكَ مَـراحَهـا
[99]وجرى بذاكَ العَذْب في شجَراتها … فثَنَتْ عليـكَ غُصُونُهـا أمداحَهـا
فـوصعتَ دِرْتَهـا وقُـ ـتَ زِمـامَها … فتكسَّبتْ بـكَ بشْرهـا وسَمـاحَهـا
والمـآثُـراتُ إذا اعتُبِـرنَ فـإنّمـا … طُبِعَتْ جُسـومـاً كنتُم أرواحَهـا
سَلسَلتُم راحَ المكـارمِ لِلوَرَى … فسَقينْتُمُـوه نميـرهـا وقَـراحَهـا
مرحتْ جيادُكَ ليس يثنيها السُّرى … ولأمـرٍ عَيْبٍ مـا تـطيل مَـراحَهـا
وشَرَتْ سيوفُكَ بـالعلى اغمـادَهـا … يَوْمَ الوَغـا فـاستحزَلَتْ ارباحَهـا
تَسْقِي العُـداةَ بِسمـامَهـا فكـأنَّهـا … أيْـدٍ تُصفِّقُ لـلنُّـدامى رَاحَهـا
بـأكفُ طـائفـةٍ تَرى يـومَ الوَهـا … نفـانُهـا أن تستحـدَّ فـلاحَهـا
هجرتْ لأطرافِ الرِّماح سهامُها … ونفتْ لإشْمـارِ الـظُّبَى أرمـاحَهـا
تختـارُ من بيضِ السُّيـوفِ فليلَهـا … وتَدُمُ من سُمْرِ الرِّماحِ صحاحَهـا
وتظلُّ إن مفعَ الحـديـد وجوهَهـا … صبغت بتـامُـور القُلوب صِفـاحَهـا
وإذا دَعـاهُـم صـارخٌ لـكـريـهـةٍ … طَـاروا لهـا بيضَ الـوجُـوهِ صبـاحَهـا
متهلِّلينَ كـأنَّ في قَسَمـاتِهِم … سُـرُجاً تُبِين تحتهـا ؟ أشبـاحَهـا
أنتَ الـذي إنْ حـلَّ ربْعـكَ طـارقٌ … ألقتْ لـكَ الكُـومُ العتـاقُ رِمـاحَهـا
وتخـاضَعَتْ ذُلُلاً إليـكَ رقـابُهـا … تُـزْجي إليـكَ هجـانَهـا ولقـاحَهـا
وإذا امْتطى ظهْر الحصـان رأيْته … بـدر الكتـائب ليْثهـا جَحْجـاحَهـا
وإذا امْتريتَ نـوالـه ألفَيْته … سمحُ الخلائق حرلها وضَاحَها
يـا روضـة لـلآمِـلينَ وجنَّـةً … تدعـو بحي على النَّـدى مـمْناحَهـا
إنَّ الأعـادي لا تـزال كـعَهـدهـا … تـورى بثلبِ مَغارهـا وكفـاحَهـا
[100] قد عيَّصت أنهارها وتحرَّقت … أشجـارَهـا ونكفَّـلت أقـداحَهـا
كلِفتْ بهـا أعـداؤهـا حتّى لقـدْ … احـدوا عليهـا نجـدَهـا وبـطاحَهـا
مـا ضرَّنـا إنْ علّقـوا مـا حوْلهـا … إن كـانَ سَيفُكَ بعـدَهـا مفتـاحَهـا
وأمـا الـزَّعيمُ إذا أشـرتَ بلحـظةٍ … أن تسْتـردَّ عـداةَهـا وطمـاحَهـا

فعلى سيوفكَ أنْ تُبيد كمـاتَهـا … وعلى جُيوشكَ أن تروِّح ساحَهـا
أشكـو اليـكَ من اللَّيـالي إنَّهـا … قـد ابـرَحَتْ بـطلامَتي إبـراحَهـا
كم رُمتُ أن ألقـاكمُ وتصـدُّني … نُـوَبٌ نبيحُ بسـاحتي أتْـراحهـا
وتَضيق نفْسي ثم أجري ذكـركُم … فتـظلُّ تَستـدْني إلي نجـاحَهـا
إن كـان دَهـري يبْتغي إفسـادَهـا … بجمَيل رأيك قدْ أسوْتَ جراحَهـا
قلِقَتْ رِكـابي من مُعـاوَدة السُّـرى … وحمدنَ رأيي حين كنتُ صاحهَـا
وصلتَ إلى ملِكِ الهُدى فـأعادَها … ممّـا شكَتْـه من السُّرى وأراحَهـا
واليْكهـا قـد بيِّنتْ عن طـاعةٍ … قصرتْ عليكُم محضَها وصُراحَهـا
وشَدَتْ بذكركُم الجميل فعطّلت … زَهْـرُ الحـدائِقِ وردَهـا وصبـاحَهـا

ووفد مع الشعراء أبو عمر بن حربون[1] فقال مهنئاً على هذه البيعة السعيدة ومادحاً وذكر الوقعة التي كانت على ابن همشك وابن مردنيش بحمل السُّبكة بغرناطة في عام سبعة وخمسين قبل البيعة . (الطويل)

[101]لكم بعْدَ حمدِ الله تُهدى المحامِدُ … وفي وصْف عليـاكُم تُصـاغُ القلائد
فـإن لكم حـقّـاً علَى كـلِّ مُسْلِمٍ … ربّمـا تقضِي الحقوقَ القصـائدُ !
إليكم سَـرَى من شِلب ركبٌ كـأنهم … مَطارد أو هُمْ للخُطُوب طرائِـدُ
سرَوْا فوقَ أعناقِ الشَّدائدِ نحْوكُم … وفي طَلَبِ العَلْيـا تَهُونُ الشَّـدائـد
لعمـرُ عُـلاكم إنَّهـا لـمليئَـةٌ … بِمـا ضمِنتْ عنها العِتـاقُ الخَلاعـد
أتتْـه بمـا أيقنـه منهـا ، ومنهُمُ … صـروفُ اللَّيالي والسُّرى والفدافِدُ
تجُـوبُ بهِم جلبـاتَ كـلِّ دُجُنّـةٍ … تَكَادُ تضلُّ القصـدَ فيهَـا الفراقِدُ

(1) هو أبو عمر بن عبد الله بن حربون كان أولاً في حلة كتاب ابن قسي زعيم المريدين ثم في حلة كتاب السيد أبي حفص وطلبة الحضر إلى أن مَنِي بالحرمان، أورد له ابن صاحب الصلاة عدة قصائد في مناسبات مختلفة وممن روى عنه أدبه وأشعاره عبد الله القيسي وابن حربون هذا غير الشاعر ابن حرمون (بالزاي) المرسي . ابن الآبار ، التكملة ، عدد 1427 ، الحلة السيراء نشر دوزي ص 200 ، 201 . صفوان بن ادريس ، زاد المسافر ص 89 المراكشي ، المعجب ص 293 - 294 - 295 ملن بالامامة 111 - 213 ابن عذاري ، البيان المغرب ص 46

ولـوْلا خُـطوبٌ أخّـرتْني لـم يَعِـدْ على الحضْـرة العَلْيـاء قلْبي وافِـدُ
فإنْ لم أكُنْ مِن شاهِدِي بَيْعَةِ الرضا فإني بإخلاص الضمير لشاهِـدُ
فحسْبُ الليـالي أو فحَسْبِي أنني مدَى الدَّهر ساعٍ في رِضاكُم مجاهد
رأيتُ العدَى قد أحلفتْهُم ظنونُهم مُذُ انتجزَتْ للدِّين هَدي المواعـد
فما زلتُمْ ترقَوْن حتّى انتهيْتُمْ إلى مُسْتَوى لا يَرتقي فيه حَاسِـدُ
فجـاءكَ بُـرهـانٌ من الله صـادعٌ يُقـرّبُه من لَمْ يـزلْ وهـو جـاحِـدُ
هي البيعة الغرّاء جاءت يقودُها إليـكَ من الأمْـر السَّمـاويِّ قائِـدُ
تَسَـرْبَلهـا من سِـرّ قَيْسٍ (1) محبَّبٌ إلَى النّـاس مَيْمُـون النَّقيبَـةِ زَاهِـد
وأبيض فيّـاض اليـديْنِ مُبَـارك على وَجْهِهِ من نُورِ ذي العَرْشِ وافِدُ
فـإن قـلّد الأمـرَ الـعَليَّ فـإنّـه لأفْضَـلُ مَنْ تُلْقَى اليْـه المَقـالِـد
مـليـكٌ إذا لاحَ الـنّـهـارُ معـظّمٌ وأمّـا إذا جنَّ الـظَّلام فعـابِـدُ!
يَـدين لـهُ مَن لـم يـدِنْ لخليفـةٍ ويقْضي لَـهُ بـالفضْل عـاوٍ وَراشِـدُ
[102] ويكتَسِبُ الـرّعـديـدُ مِنْـه بَسـالَـةً وتَـعْـرِفُ مِـن جَـدْوَى يـديْـه الـرَّواعِـد
فمـا يَـدْفَـعُ المَوهُـوبُ إلا بيُمْنِـهِ ولا تُـقْتَنَـى إلا لـنَيْـلِـهِ الفَـرائِـدُ
فيَرْجع عنْـه جاهـلٌ وهْوَ عـالمٌ ويـرْجعُ عنْـهُ مُعْدِمٌ وهْـو واجِـدُ
لَـهُ راحـةٌ لـو أنَّ للمُزْن جـودَها لما سَارَ يبْغي الخصْبَ في الأرضِ رَائِدُ
وطبْـعٌ تمنّى الرّافـدان(2) لـو أنّـهُ يـمـدُّهُـمـا مِـنْـهُ مُـعيـنٌ ورافِـدُ
إليـه انتهى النُّـور المُبين الّـذي بـه تـمضُّـر صـلُيـلٌ وادَّعـى مـارد
هُو المُصطَفى من صَفْوةٍ نَعْدَ صفوةٍ وطيبُ الفُروع أن تَطِيب المحَاتِـد
سَليـلُ الإمـامِ المجْتَبَى وشَبِيهُـه فـإنْ حَلَّ مولـودٌ فقـد حَلَّ والـد!

(1) يعني قيس، وقد علمت أن بعض المؤرخين يرفعون نسب عبد المؤمن - وهو من كومية - إلى قيس عيلان بن مضر وأن المحققين على أنهم ينتهون إلى صرى بن زحيك. أنظر التعليق رقم 6 ص 73 الاستقصاص 89.
(2) الرافدان: دجلة والفرات، وعن هذين النهرين أنظر: جغرافية العراق للدكتور جاسم محمد الخلف طبعة معهد الدراسات العربية 1961 ص 26 28، 29

مجالسهُم روْضَاتُ نجدٍ(1) يزينها من النّـور أجسـامٌ تُؤامٌ وفـارد
مجالسٌ لو ترْقى الكَواكِب نَحْوَها لقـد بـاتَ تلمبـذاً لـديهم عُـطارد
لقـد عَمرت بـالعِلْم حتّى كأنها لكثْرةِ ذكْـر الله فيهـا مسَـاجـد
إذا نضَـدُ الدّيبـاج مَـالَ بمَعْشَـرٍ فلَيْسَ لهم إلاّ الـدُّروع نضَـائـد
وإن مَرِهتْ حرْبٌ عـوانٌ فعندهم لَهَا مِن قَنا السُّمْرِ الطُّوالِ مَراود(2)
بعَـدْلِ أبي يعْقُوب يَـأمَنُ خـائفٌ ويُجْبَـرُ منْهـاضٌ ويصْلح فـاسِـدُ
فتًى تنْجلي الظّلماءُ عَنْ نُور وجْهِهِ فمَهْمـا بَدَا لَمْ يفقـدِ البدْر فـاقِـدُ
ومَـايِلٌ به تُخْبِرْكَ عن عزَمَاتِهِ سَوائِلُ من مَاءِ الحَديدِ رواكِدُ
عَلَيْهَا لـرَقْراقِ السَّراب غـلائلٌ علَيْهنَّ من رَدْعِ الـدِّماءِ مَجاسِدُ
تجمَّعْنَ مِنْ مَـاءٍ ونـارٍ تـآلُفـا فلا الماءُ مُنْسابٌ ولا الجَمْرُ هـامد
وطئت محاجُ النَّخلِ مِنْهَا بمالَهَا ومـا هُـو إلاّ مـا تمُجُّ الأسَـاوِدُ(3)
[103] وسُمرٍ طوالٍ من رماحٍ رُدَيْنَةٍ تـطولُ بها يـوم اللّقاءِ السَّواعِد
أبَتْ أن تـرى إلاّ وريـانَ صَـادر يفيءُ دمـاً منهـا، وظمْـآن وارِدُ
تميسُ كمـا مـاسَتْ قُـدودٌ نـواعِمٌ تثقّـل أعـلامـاً ثُـديٌّ نـواهِـدُ
تـزيّتْ بـزيِّ الحُبِّ فهْيَ سَـواهِمٌ وأعيُنهـا خُمْرُ المَآقِي سَـواهِـدُ
وعُـوج كـأمثالِ السَّراحين شُـزَّبِ قـريبٌ لـدَيْهـا النّازحُ المُتبـاعِـدُ
جِسـانٌ لـو أنّ الحُسْنَ بيلَ بمطلبٍ لأضْحى تشتمليه منْهـا الخَـرائِـدُ
إذا الجمت لم يَعصم العُصم معقلٌ ولم يحترمْ في البيدِ منهـا الأوابـدُ
فمـا سوِّمَتْ من قبلهن سَـوارقٌ ولا ملكتْ هُـوج الـرِّيـاحِ مَقـاوِدُ
إذا شطْبَةٌ منها بـدَتْ تحتَ فارسٍ بَـدا أسَـدٌ من فـوق فتْخاء قـاعِـدُ
تَراها كمـا ولّى من الذُّعر خاضِبٌ وأقـبـل مـدْحـورٌ من الأدم شـاردُ

(1) نجد: البلاد التي فوق العالية من جزيرة العرب بالنسبة لتهامة. ياقوت: معجم البلدان. تاريخ نجد (للشيخ ابن غنام) نشر الدكتور ناصر الدين الأسد 1961.
(2) العين المرهى: غير المكحولة، وسنا كل شيء: حدّ طرفه
(3) جمع أسود: العظيم من الحيّات وفيه سواد




لقد وردتْ شَيَّل منها[1] مقانبٌ ... كما انحدرتْ من رأس رَضوى[2] الجلامد
تحلَّل منها المَـرْدنيشيُّ حوزةً ... تناعى بها بين البُيوتِ الولائدُ
وولّى بها شوهاءَ قد فضحتْهُمُ ... كما افتضحتْ بعدَ الأماني عابِدُ[3]
فريتم سِباع الأرض منها فأصبحتْ ... كأنْ رُباها للعَوافي[4] سوائدُ
لقد أيقنوا أنَّ الحتُوف مصادِرٌ ... غداةَ رأوا أنَّ الشِّمار المَوارد !
محاءوا كما جاءتْ أسُودٌ بواسِلٌ ... وولَّوْا كما ولتْ نَعامٌ شوارد !
كتائبُ كالجاماتِ حامُوا ، فأصبحوا ... وهُم للسُّيوف المُراهَفاتِ حصائدُ
بـزلّتَ عجاجَ الموتِ ثم تكشَّفتْ ... وقدْ فاز بالنَّصر الجَليدُ المجالِدُ
ولم يَغْنِ عنهُم يوم ذلك كيْدُهُم ... وهَل يَدْفع الحين المُتاحَ المكائِدُ
[104] وما يَصنَعُ السَّيفُ المصمم في الوغى ... إذا لم تساعده على الضرب ساعد[5]
إذا كان صيُّور الملوك بحُكمكُم ... فَسيَّان منهم طائعٌ ومعانِدُ
وما المجدُ إلا من هِبات أكفِّكُم ... فمَن نال حظاً منكم فهوَ ماجِدُ
ودونكمُوها من ثنائي فريدةً ... عليها من النَّظم البَديع فرائدُ
تلاقى عليها من لِساني شاكِرٌ ... ومِن نِعَم المَولى المعظَّم شاهدُ
وفي خلَدي إن كان في العُمْر مهلةٌ ... عجائبُ يفنى الدَّهرُ وهي خوالِد !
قصائدُ أنّى سرتْ يوماً فإنّها ... الى ابْن أميرِ المؤمنينَ قواصِدُ

(1) انظر التعليق رقم 5 ص 132 .
(2) رضوى : اسم جبل بين المدينة والينبع ، ومنه المثل العربي : «أثقل من رضوى وجاح» ، شيخ تشاب وشاب تشاح»
(3) كذا في الأصل ولم نتبين جيداً من معنى الشطر الثاني للبيت .
(4) العوافي جمع عافٍ : كلّ طالب للرزق ، وقد قرئت لدى بعض الناس «العراقي» جمع عرفاء : الضبع وذلك لطول عرفها وكثرة شعرها قال الشنفري :
ولي دونكم أهلون سيد عملس ... وأرقط زهلول وعرفاء جيأل
الثاري : لامية العرب طبعة الرباط ، 1953 ص 21
(5) على نص هذا البيت طرة باهتة لم نتبينها إلا في (أكسفورد) ، وقد كتب فيها باللفظ : «هذا نظر إلى قول المتنبي وما السيف إلا مستدار لزينة» . وقد حاولت عبثاً أن أجد له ذكراً بين شعر المتنبي ، وقد أفاد الأستاذ البحاثة السيد عبد الكريم بن الحسني في رسالة مسهبة أن قائله هو البحتري وليس المتنبي من قصيدته في مدح الفتح ابن خاقان غير أنه عوض (مستدار) يوجد (برعاد) والبرعاد السلاح وليس بعيداً تحريف برعاد إلى مستدار انظر مجلة (الأقلام) العراقية أكتوبر سنة 1964 ص 178

رجع الخبر

ذكر حركة السيد الأعلى أبي حفص إلى أخيه السيد أبي سعيد على معنى التحامل والتعاون ، والتواصل والتعاون ، واجتماعهما بجبل الفتح جبل طارق

تحرك السيد الأعلى من حضرة مراكش في أول شهر ربيع الأول الموافق لبقية أيام[1] من شهر يناير العجمي من عام ستين وخمس مائة في حملة من أعيان رجال الموحدين - أعانهم الله - وأشياخ الجماعة كأبي يحيى بن الشيخ المرحوم أبي حفص[2] ، وأبي يعقوب يوسف بن أبي عبد الله بن تيجيت[3] ، وإسحاق بن أبي إسحاق بن جامع[4] . ومن أشياخ ثوار الأندلس المختصين به كأبي محمد سيد راي [105] ابن وزير[5] ، وأخيه أبي الحسن[6] علي ، وصاحب لَبْلَة[7] علي الفخار ، وزيد بن محبوب ، ومحمد بن أبي مروان بن سعيد الغرناطي[8] ، ومن أشياخ مسّوفة ولمتونة رجال اجتمع فيهم نخبة من الناس كبيرة القدْر ، متوسطة العدد والذكر ، عددهم نحو الأربع مائة فارس ،

(1) الموافق 16 يناير 1165
(2) راجع تعليق رقم 6 صفحة 93
(3) من أشياخ الجماعة ، وقد صحب السيد أبا حفص ابن الخليفة عبد المؤمن إلى غزو ابن مردنيش سنة خمس وستين وخمسمائة ، وكذلك صحب الخليفة أبا يعقوب يوسف في موقعة وبذة ، وذهب في مهمة إلى بطليوس . انظر ص 279 من ابن صاحب الصلاة .
(4) من أعيان رجال الموحدين ، وأغلب الظن أنه أخ للوزير أبي العلاء ادريس بن أبي إسحاق ابن جامع راجع التعليق رقم 2 صفحة 169
(5) هو صاحب يابرة . أنظر التعليق رقم 3 صفحة 67 . الاستقصا الجزء 2 ص 107
(6) انظر التعليق رقم 4 ص 167
(7) لبلة (NIBLA) مدينة قديمة تقع في الجنوب الغربي للأندلس بشمال طريانة قريباً من إشبيلية . الروض المعطار ص 168
(8) من أسرة ابن سعيد المعروفة أصحاب قلعة يحصب (Alcalà la Real) ويظهر أنه أخ لعبد الرحمن وزير المظالم لدى ابن مردنيش والمنضم للموحدين بعد ، وقد تولى كل منهما على التوالي الاشراف على أعمال البناء الجارية في المسجد الجامع باشبيلية . راجع صفحة 325 - 332 - 337 - 338 - 339 . ابن الخطيب : الاحاطة ، مخطوطة الأسكوريال ورقة 147

وصحبه بالأمر الكريم للغزو في هذه الحركة السعيدة الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين[1] ، وأبو عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن واسودين[2] بعسكر مختار من أعيان العرب وأنجادهم كعلي بن محرز بن زياد[3] ، وأخوته المبادرين للغزو بالتكاثر والازدياد ، ومن قبيله وشيعه رجال فرسان أبطال زهاء أربعة آلاف فارس ليتقدّما بهم بين يدي السيد الأعلى الى إشبيلية وقرطبة لحماية ضيفتهما في مواسطهما وثغورهما ودفع الأعداء الرُّوم والأشقياء المنافقين عن معمورهما ، فوصل السيد المذكور وجمعه الموفور الى مدينة سلى بالجميع ، وأقام فيها نحو شهر للنظر في المصالح ، وتقدم الشيخ أبو سعيد وأبو عبد الله محمد بن يوسف ، بالعرب الى البحر للأجازة على ما تووعد معهما عليه ، وفي أثناء هذه الإقامة خاطب السيد الأعلى أخاه إلى قرطبة يعلمه بالمشي إلى لقائه ، وتنسّم ريح المواصلة من تلقائه ، وان يكون المجتمع بجبل الفتح جبل طارق ـ عمّره الله ـ فوصل جوابه منعماً بذلك تحت وعد صادق ، [106] وعهد مُوافق ، فاعمل السيد الأعلى حركته الميمونة ، وشينه المصونة ، بحملته الخاصة المذكورة المتعية من سلى الى طنجة .

قال المؤلف عبد الملك بن صاحب الصلاة : كنت[4] في جملة الواردين قاصداً التبرك بالسيد الأعلى، ولأحضر مع طلبة الحضر الوافدين، وأقصد قصد القاصدين . ولما وصل السيد الأعلى الى طنجة[5] بجملته المباركة ركب منها

(1) يخلف بن شيوخ الموحدين الذين اعتمدهم البلاط الموحدي في غزواته ضد الثوار سواء في المغرب أو الأندلس ، ولذلك فقد نال تنويهاً من قبل الخليفة يوسف في الرسائل الموحدية ، وقد كان عين من قبل عبد المؤمن بن علي وزيراً في بجاية لولده عبد الله ثم بعثه به يوسف كطليعة أولى عندما قرر الجواز إلى الأندلس سنة 566 البيذق ص 32 - 33 الاستقصا ثان ص 110

(2) أنظر التعليق رقم 5 ص 117

(3) هو ابن الثائر العربي محرز بن زياد أنظر تعليق رقم 6 ص 72 .

(4) أمسى ابن صاحب الصلاة يتحدث عما رآه رؤيا عين وقد نزل بجبل طارق . راجع المقدمة .

(5) طنجة : مدينة أزلية كانت بها آثار كبيرة للأول ويعتبرها بعض الجغرافيين آخر حدود افريقية في المغرب ، وكانت على الدوام دار مملكة الأمم الغابرة ، ويذكر التاريخ أنه منها كان يمتد رصيف الاسكندر الذي بناه على بحر الزقاق إلى ساحل الأندلس وكانت تمر القوافل والعساكر من ساحل طنجة إلى الأندلس ، ويذكر أنه قبل =

البحر الزقاق في الغراب[1] طيار وعبر به إلى مدينة سبتة منفرداً مع خاصته الخاصّة به وكاتبه أبي الحسن عبد الملك بن عياش ، وأمر بمشي الناس على خيلهم على البر إلى (قصر مصمودة)[2] ثم إلى سبتة، فنزلوا بها ، تحت أمره بخير منزل ، وانسابت عليهم الأرزاق والضيافات والمواساة بكل بر مستعجل ، فلما كان في اليوم الثاني من وصوله إلى سبتة ، عبر غراب طيار في البحر من الجزيرة الخضراء يعلم مَن فيه بحلول السيد أبي سعيد مع خاصته وأشياخه بجبل الفتح جبل طارق ، فعبر السيد الأعلى البحر في ذلك اليوم ،ومعه جملة الناس في القطائع المعدة لعبوره في هيئة عظيمة للنظارة من نشر البنود ، وقرع الطبول والسرور بالورود ، وإيصال الشُّمل بذلك الوصول ، وكان يوماً شهيراً كلّه سرورٌ ، وبرز أيضاً فيه السيِّد أبو سعيد في قطائعه بجبل الفتح براياته ، وإنجاز عداته ، وبشر ملاقاته ، ما أبهت [107] الحاضرين ، وسرَّ العابرين والنَّاظرين ، واجتمعا خير اجتماع ، وارتفع الإرجاف أجمل ارتفاع ، وعمّْ الخير والحُبور بجميع الجهات والأشقاع ووفد أهل إشبيلية والفقيه ابن الجد ، وقاضيهم أبو بكر العافقي ، وصاحب المخزن محمد بن المعلم[3] المستناب بإشبيلية ، وأهل الغرب[4] ، وأهل قرطبة وغرناطة والشعراء للتّهاني ، باتصال البشارات والأماني ، وجلس السيد الأعلى للناس

= الفتح الإسلامي بحوالي سنة طغى ماء البحر المحيط إلى بحر الزقاق فضاعت القنطرة الاسكندرية الادريسي ص168 ـ الاستبصار ص138 ـ معجم البلدان ـ المقري : نفح الطيب 1949 جزء أول ص - 132 133 راجع التعليق رقم 5 ص 72 والتعليق رقم 4 ص 90

(1) الغُراب : Gurapus كلمة مرادفة لكلمة قطعة تعني السفينة القديمة التي تسير بالقلوع والمجاديف ، وقد ورد ذكرها هنا وكذا في البيذق ومصادر أخرى ، واستمر لفظ (الغراب) معروفاً إلى أواسط القرن الثامن عشر ولذلك فإننا نجد له ذكراً في سفارة الغزال لاسبانيا ، جمعه أغربة . ابن صاحب الصلاة ص 108 البيذق، أخبار المهدي ص 107 النص العربي وص 176 والنص طبعة معهد مولاي الحسن ، تطوان 1941 ص 11 الاستقصا 6 : 75 .
Dozy Sup. aux dictionnaires Arabe T 2 page 204 - 205

(2) أنظر تعليق رقم 1 صفحة 128

(3) أنظر التعليق رقم 2 صفحة 142

(4) يقصد الغرْب (AL GARVE) من الأندلس

للسلام في القصر المشيد في البنيان الرفيع الشان ، فدخل وفدٌ بعد وفد ، وحطوا وأظنوا ، وأُطعموا الطعام ، وأُنيلوا المنزل الرحب والأنعام ، وأنشد الشعراء أشعارهم وقصوا فيما وفدوا به أوطارهم ، وحبا السيد الأعلى جميعهم بالأعطيات والبركات والكسا على أتمّ الخيرات ، ودامت الإقامة في الجبل مدة خمسة عشر يوماً في مسرّةٍ متصلة ، ومبرّةٍ مشتملة ، وأنشد أبو عمر بن حربون قصيدةً حسنة من أولها إلى آخرها : (بسيط)

قَدْ حَصْحَصَ الحقُّ لا ريبٌ ولا فَنَدُ   هَـذي الفُتُوح التي كانُوا بها وعدوا
خُـذوا بحظِّكم يـا أهْلَ أندلُسٍ   فـليس لـغـاوٍ بَـعْـدَها رشد
واسْتَمْسِكُوا بِعُرَى الأمْرِ الذي بَهَرتْ   آيـاتُـه كـلُّ مَـن يَـغْـلُو وَيَقْـتَصِد
اليَوْمَ صُمَّ صَدَى الغاوِي بأرْضِكُم   والكَلْبُ ينبحُ ما لَمْ يـزأرِ الأسَدُ !
هـذا الذِي وَعَـدَ اللهُ العِبادَ بِـهِ   قَد انجزَ الوعدُ حقّاً وانتهى الأمَدُ
[108] هذا سَليل إمامِ الحقِّ بينكمُ   لا المالُ مدَّخر عنكم ولا الوَلَـد
فقَـدْ ظفرتُم بِعبـاسٍ مواهبُـه   تُحصى الحَصَى قبْلَ أن يحصى لَهَا عدد
يغشـون منه إلى أسوارِ ذِي فِطَنٍ   يكـاد لـوْلا نـدَى كفَّيْـه يتّقِـد
لا يقْبِض العدم كفّاً عن أخي أدبٍ   إلّا إذا انبسطت بالعُرف منه يَـدُ
لما اعتضدتُم بـهِ مستصرخين سَرَى   إليكمُ وهـو بـالـرَّحْمَن مُعْتَضِـد
وجاء في سَرَعانِ الجَيْش يقدُمُـه   جبْريـل والمـلأُ الأعْلى لَـهُ مَـدد
تحفُّـه من جُنُـودِ اللهِ طـائـفـةٌ   لا يـهـدِ النَّصْـر إلا آيـةٌ تَـهْـدُوا
مُجَرّبـون مِراس الحَـرْب دأبُهم   فكلّمـا صَـدَروا عـن غَمْـرةٍ وَرَدُوا
قد طال ما غنَّمتْهم كلُّ ملحمـةٍ   لَهـا طـرائقُ في هـامـاتِـهم قِـدد
انظرْ إلى مَجْمع البحرين[1] كيف حَوَى   من الفضـائـل مـا لَم يَحْوِهِ بَلَدُ

(1) يقصد به جبل طارق، وبه فسر في قوله تعالى : ﴿وإذا قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ . (السورة رقم 18 الآية 59) راجع ما كتبه المفسرون.

لاقَى الكليمُ عَلَى الشَّاطِىءِ به خضراً[1]   وفيـهِ لاقَى أخـاه السيّـد السنَـدُ
صنوان ما اجتمَعَا في أرض أندلس   إلا لـيُحْيِي فيـهـا دينَـه الأحَـدُ
يا من رأى الفُلكَ فوْق المَوْج طافيةً[2]   كما كفات[3] قباباً وسْطها العَمَـد
ينسـابُ منهنَّ في أعلى غواربـه   أساودٌ سَكنتْ أجوافها أُسُـد
بحرٌ كـأن أبـا حفص بصَهْوتـه   لقمان والمركب الجَاري به لُبَد[4]
تحسَبُوا من غُراب[5] فَوْق غاربـه   ثَهْلان ذُو الهضبات الشمّ أو أُحُـد
وعـايَن البَحْـر منـه[6] لجتـه   بحْراً خِضَمّاً لـه من فضَّةٍ زَبَـد
فـالآن قُلْ لـذوي الإلْحاد شـانئكم   فَمـا لَكُم دُونَ هذا الأمْـرِ ملتحَـدُ
وبشّر العُجْم أنَّ العرب قَـدْ دلفت   على العِراب وأن الملتقَى صَـدَدُ
[109] هـاتيك ثـانيـة اليُرمـوك[7] قـد رَجَفَتْ   مـا إن لَـكُـم صـيـبٌ عَـنْـهـا ولا صَـعَـدُ

(1) يذكر المفسرون - كما قلنا - أن مجمع البحرين عند طنجة حيث يجتمع البحر المحيط وبحر الاندلس، وأن في هذا المكان بالذات تمّ التقاء نبي الله موسى بالخضر عليه السلام. ابن جزي - كتاب التسهيل الأول جزء ثان طبعة 1355 - ص 191 - 192. عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء طبعة 1936 ص 302.
(2) نظراً للمكانة الخاصة التي احتلّها الأسطول المغربي على عهد الموحدين، والتي كانت الباعث الأوّل لصلاح الدين الأيوبي على الاستنجاد بهذا الأسطول، فإن القطع الشعرية التي كانت تقدّم للخلفاء الموحدين، كانت تشير في الغالب إلى هذه الظاهرة الحضارية التي كان المغرب يستأثر بها.
(3) المعنى على (نصبت) مثلاً، لكن المخطوط فيه كفات ولم أهتدِ للمعنى على هذا اللفظ.
(4) لعله يقصد لقمان صاحب النسور وتنسبه الشعراء إلى عاد (لسان العرب). وفي حياة الحيوان للدميري ص 301 جزء 2 في أمثال النسر: وقالوا - أتى الأبد على لُبد، وهذا اللبد هو آخر نسور لقمان بن عاد، وكان قد سأل الله طول العمر فاختار النسور، فكان يأخذ الفرخ حين خروجه من البيضة فيربّيه فيعيش ثمانين سنة، هكذا حتى هلك منها ستة فسمى السابع لُبد، وذكر في لبد قولهم: أهرم من لبد وأنشد:
يا سكر حواءكم تعيش وكم   تسحب ذيل الحياة يا لُبَدُ
(5) راجع التعليق رقم 5 ص 180.
(6) يظهر أن لفظة (فوق) سقطت هنا.
(7) اليرموك واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن ثم يمضي إلى البحيرة المنتنة، كانت به حرب بين المسلمين والروم أيام أبي بكر الصديق. ياقوت معجم البلدان. دكتور حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام، مجلد أول ص 225.

فـالدّينُ جذْلانُ قد عزّتْ جوانبُه ... والكُفْر خَزْيانُ ما يَمكُ يُضْطهَدُ
ها إنّها كـالـدّنـا تَنْسَاغُ نَحوكُمُ ... فيهَا الحفاظُ وفيهَـا الصَّبْرُ والجلَد
تَرى الكُماةَ الّتي ما شأنُها خَورٌ ... عَلَى الجيَاد التي قد رانَهـا الجَيَدُ
شيبٌ ومُردٌ يُنادي البأسُ إن ركبوا : ... أَيْنَ العواة الأولى قَدْ طال ما سردُوا
طَنُّوا بها قد أتتْ تُزجي مقانبَها ... مثْلَ الرُّواعِد فيهَا البَرْقُ والبرد
وللذّوابل في أرْجَانهـا نَغَمٌ ... كـأنّ كـلّ سنـان طـائرٌ غَرِد
من كلّ أزرق آثار الدّمَاء به ... كـأنّـه مقلةٌ قَدْ مسّهَـا رَمَد
اطلعنَـموعا بـآفاقِ الوغى شُهُبـاً ... منيرةً في دياجي نَقْعُهـا تقِـدُ
فليس يصْعَد شيطانُ النّفاق بهَا ... إلاّ تلقّاه من حرصانهـا رَصَد
من ذَا الذي يتعاطى وصْفَ حالِكمُ ... والبَحْرُ في جنْب ما تُولونه ثَمدُ!
فسوّغوا عنْدكم عذراً ، فمجدكم ... يقصُر المرء عنْه وهو مُجْتهِد
وَدُونكم من قوافي مَدْحِكم خُمرا ... تُبلى اللّيَالي وهُنَّ الغضَّةُ الخُرُد
صدرْنَ منّي بحُكم الوُدّ عَنْ كبدٍ ... لـوْلا رجاؤكُمْ قَدْ فتّهَا الكمَد
بثتْ مِنهنّ بالسّحر الحلال ، فلَمْ ... تعقد على نَفْثٍ نفّاث بهَا العُقَد !

وقال عنه ما أجاز البحر منصرفاً بمدينة سبتة في تاريخ ذلك : (طويل)

تحشّمتُ هَوْلَ البحر في طَلَب البحْرِ ... ولم أشْكُ صَرْفَ الدّهرِ إلاّ إلى الدُّهْر
[110] فقُلْ للدّياجي اغْدقي أو تكشّفِي ... فها أنا قدْ أمسيتُ في ذمّة البدْر
لعمْرُك ما ألقى أبا حفص الرّضى ... وأشكُو اللّيالي مَا تطاول مِن عُمْر
هُمَامٌ إذَا ما همّ نَال مُرادَهُ ... ولو أنه أمْسَى على قِمّة النّسْر
هو ابْنُ أمير المؤمنين وشبهُه ... وحسْبُكَ من فرْعٍ وحسْبُكَ من نَجْر

فاستحسن هذه البيات مع تقدم القصيد وما ذكر فيه من القصود ، ثم نفذ أمره الكريم بالانصراف ، وعبور البحر الى العدوة والانعطاف ، وسرح

أشياخ بلاد الأندلس الوافدين ، والعمال والأجناد القاصدين ، بعد ما ذكرته من الأنعام عليهم على أوفى التمام المقام ، وأجاز السيد الأعلى وأخوه السعيد[1] وأكثر الجملة الخاصّة به ولم تستكمل المراكب ولا القطائع النّاس في الإجازة في ذلك اليوم ، فأقام السيد في سبتة ثلاثة أيام إلى أن عادت المراكب والقطائع بالعبور إليهم بالجبل ، وبالجزيرة الخضراء فأجاز الجميع إليه ، واستقروا في محلته بين يديه ، وكنت[2] مع الوافدين أولاً وأخيراً ورفعت شعراً مع الشعراء على رأي عمر بن الخطاب[3] رضي الله عنه استلطف فيه كرمه ، واستعطف به عدله ونعمه ، وأوصله إليه الكاتب أبو الحسن بن عياش وبيّن عند السيد الأعلى مسألة وفودي وقصودي فوعد رضي الله عنه في جانبي بعدة جميلة ، وبآمال كفيلة .

(مرافقة ابن صاحب الصلاة لركب الخليفة ونزوله بالمغرب)

وصحبت [111] خَمْلته[4] حتى إلى الحضرة العلية المشتملة على العدل وعلى كلّ فضيلة ، ووصلتها يوم وصوله ، وحللت فيها حين حلوله ، واستسعدت به حيث كان في إقامته ورحيله ، وكما قال الفقيه القاضي أبو بكر بن العربي[5] فخر الأندلس وبحر علم الأنفس في تآليفه في (كتاب

(1) هو بالذات أبو سعيد، ولعل الأصل هكذا أبو سعيد
(2) يؤكد ابن صاحب الصلاة أنه كان في جملة الحاضرين إلى جبل طارق وأنه كان ضمن الشعراء الذين أسهموا في تحية هذا اللقاء بل واستمر مرافقاً للركب. راجع المقدمة
(3) يقصد فيما نتأكد أنه لم يتبع في شعره حوشي الكلام ولم يعاظل، وأنه لم يقل إلا ما يعرف ولم يمدح إلا بما هو موجود، وتلك المبادىء هي التي اعتمدها عمر بن الخطاب في الحكم على ابن أبي سلمى بأنه أشعر الشعراء... الأصفهاني الأغاني جزء 9 طبعة بيروت 1955 ص 295
(4) عوض هذه الورقة رقم 56 نجد في المخطوط المجلد ورقة تحمل خطأ رقم 56 بينما هي في الواقع رقم 61 وتبتدىء هكذا: وأبي عبد الله بن يوسف المتقدمين بالعرب إلى جزيرة الأندلس، راجع المقدمة حول الخطأ الذي وقع فيه الذين جلدوا المخطوط ص 16
(5) أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري ترجمه غير واحد في غير ما كتاب، وقد كان على رأس...

الرحلة)[1] له حين دخل بغداد وتعرف سلطانها : « نعمت المعرفة التعرف بالسلطان ، والتشرف به عند التغرُّب من الأوطان ، ونعم العون على العلم الرياسة بالأمن والاستيطان » . ونفذ أمر السيد الأعلى أبي حفص إلى أبي عُمَر بن حربون ، وأبي الحسن[2] . . . . الهوزني كاتب محمد بن المعلم أن

– الوفد الذي ورد على المغرب لتقديم طاعته للموحدين سنة اثنين وأربعين وخمسمائة توفي على مقربة من مدينة فاس عند رجوعه من مراكش سنة 543، وفي عهد السلطان المولى اسماعيل حين وفد عليه للمغرب وفد المعافرة من الصحراء وتزوج منهم بالسيدة حناثة بنت بكار سيّدهم سألت عن قبر ابن العربي وأمرت بناء قبّة عليه ما تزال معروفة مقصودة إلى الآن. الحلل الموشية ص 122 ـ المقري نفح الطيب طبعة 1949 جزء ثان ص 233 ـ الاعلام، لخير الدين الوركلي سابع ص 106 ـ العباس بن إبراهيم، الاعلام ثالث ص 11. الدُّرر الفاخرة.

(1) كان القاضي أبو بكر بن العربي ذهب صحبة والده في مهمة رسمية إلى بغداد مبعوثاً من طرف يوسف بن تاشفين، فقد خاطب يوسف بواسطة هذا الوفد الخليفة ببغداد على عهده أبا العباس أحمد المستظهر بالله ابن الخليفة العباسي المقتدي بالله في أن يعقد لأمير المسلمين بالمغرب والأندلس... ولكن هذه الرحلة إلى المشرق لم تمر كسائر الرحلات اذْ أنها كانت فرصةً لابن العربي كيما يأتي بما لم يأت به أحد، ولذلك فقد ذكر في أبرز مؤلفاته الفريدة (كتاب الرحلة) ويوجد مخطوطٌ بالخزانة العامة بالرباط يظن أنه (ملخص) لكتاب الرحلة، وهو يبتدىء هكذا: قال الإمام الحافظ القدوة المبارك الفاضل أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الأندلسي (رض)... وقد شاهدت من طلب العلم بأفريقية ومصر والشام والساحل والعراق والحجاز وما لا يأتي عليه الاحصاء ولا ينال باستقصا... ولما سبق القضا برحلتي إلى تلك المشاهد الكريمة، وحلولي في تلك المقامات العظيمة، دخلتُها والعُمْر في عنفوانه، والغصن مايس بأفنانه، ونزلته في كتاب ترتيب الرحلة... إلى أن يقول: المرتبة الأولى لما وصلنا إلى مدينة السلام كتب أبي برد الله مثواه... إلى الخليفة رضوان الله عليه كتاباً في درج طويل على صفة ادراجهم في مخاطباتهم... وتختم هذه الأوراق هكذا: انتهى ما تخلص من هذه القصة... الخ.
وابن صاحب الصلاة هنا ينقل مقطعاً من الرحلة المعافرية مما لم أجد له نصاً في المخطوط المشار إليه وإن كان قد أشار إلى الاتصال برجال الحكم. المخطوط رقم 1020. الخزانة العامة، الرباط ـ المقري نفح الطيب الجزء الثاني ص 235، أحمد الهواري، دليل الحج والسياحة طبعة 1935 ص 293، العباس بن إبراهيم جزء 3 ص 13. ابن خلدون، المجلد السادس ص 386. السيوطي تاريخ الخلفاء 1959 صفحة 426 ـ الاستقصا ثان ص 53.

(2) هنا بياض وأغلب الظن أن اسم عليّ سقط للناسخ الذي لم يترك فراغاً عند إيراد الاسم اثر هذا، وأبو الحسن الهوزني هذا هو علي بن أبي حفص عمر بن أبي القاسم بن أبي حفص كان ـ فيما رواه ابن عذاري ـ من الرواة الذين اعتمد عليهم ابن صاحب الصلاة عند سرده لحوادث 575، وقد وردت تكنيته عند المراكشي وابن سعيد بأبي الحسن وذكره الأول على أنه من كتّاب الخليفة أبي=

يصحباه لكتابته في جملة كتابه ، فأما أبو الحسن الهوزني فرفعتْه أيامه بتدوينه في المحاسبة وبخطّه ، وأما أبو عُمَر بن حربون فطالبتْه معارفه ، وذلته أفهامها وأقلامه وأشعاره حتى تمكنت من حرمانه وحطه حسبما أذكره في هذا التاريخ[1]

وتحرّك السيد الأعلى من سبتة آخذاً في السير ، بالبِشر العام وسأوفى الخَيْر ، فاختار في مسيره على مدينة فاس[2] ، ثم أعمل الطريق إلى حضرة مراكش حرسها الله والسعد يقدمه ، والنّصر علمه ، والبشر مبتسمه ، إلى أن وصل فتلقّاه السيد المؤيد الأمير أبو يعقوب رضي الله عنه ، ومع السيد أبي حفص [112] أخوه السيد أبو سعيد خارج مراكش على أوفى الاستبشار ، والسرور البادي باجتماعهم ، والاستظهار ، وإقماع المنافقين والكفار ، وعلى أكمل غاية الظهور والبروز من قرع الطبول وخفْق البنود ، واجتماع النظارة وحضور الوفود بكمال العهود . ودخل السيد مراكش في أول رجب الفرد من عام ستين وخمس مائة ، وأطعم الموحدين الطعام وجميع الناس ، وظهر السرور في الابشار بأجمل الظاهر والإحساس . وأنشد الشعراء أشعارهم بالتهاني والمدائح فأجادوا وأحسنوا ، وخطب الخطباء فأتوا في ذلك بالسّحر الحلال وبيّنوا ، وقال الأستاذ أبو الوليد الشواش الشلبي في ذلك المجلس الكريم مادحاً مهنئاً الأمير أبا يعقوب بالقدوم الميمون المعلى بالسلامة والتسليم : (كامل)

– سعيد يعقوب والثاني على أنه من كتّاب منصور بني عبد المؤمن كما يذكر ابن عذاري. المعجب طبعة القاهرة ص 244 ـ ابن عذاري ص 106 و165 ـ المغرب في حلى المغرب أول ص 235

(1) في السفر الثالث دون شك وانظر التعليق رقم 1 ص 175.

(2) لقد علمنا منذ قليل أن ابن صاحب الصلاة كان في جملة الوافدين على جبل طارق وأنه صحب موكب السيد أبي حفص إلى الحضرة العلية، وهكذا نجد ابن صاحب الصلاة يحل بمدينة فاس، ونحن نرجح أن تكون هذه هي زيارته الأولى لمدينة فاس، ونرجح أن يكون استمع في هذه المرة إلى الشيخ المسن الذي حدّثه عن رحلته لبغداد واتصاله بالإمام الغزالي. ودعاه هذا على أيام بني لمتونة بالبوار! الحلل الموشية ـ نشر علوش ص 85

وضَحَتْ بأنوارِ الهُدى قسماتُه   وأبانتِ الهَدْيَ القَويم سِمَاتُه[1]

مَلكُ المُلوكِ مؤيَّدٌ لسكنُه   غَلَبَتْ عليه مِنَ التُّقى مَلكَاتُه

دانتْ لَهُ الدُّنيا وكافَّة أهْلِها   فعَفَا وعَفَّ وسامَحَتْ عطفاتُه

ألْذى لَنا بشبابهِ وتَبابِه   عجبّاً وطاهر حسنه حسناتُه

[113] فرعٌ من الدَّوْحِ الألَفِّ تسامقَتْ   أفْنانُه وتقابلتْ شعَباتُه

نامَى وطَاوَل في سماواتِ العُلَى   صَعداً وعاجَلَ غرسَه ثمراتُه

غرٌّ لبيبٌ والعُلُوم لِذاتِه   والمعلوات كرائماً ذاياتُه

كثرتْ فضائلهُ فكاثرتِ الحَصَى   عَدَّاً ، وقَدْ قلَّت به سَنَواته

ومضتْ ببرقِ غيُومِه صَفَحَاتُه   ومضتْ مضاءَ صِفاحِه عزماته

وأفادهُ دَهْراً مُفيداً مُنْعِماً   وُصِلَتْ بساهِرِ خَيْره خَيْراته

نحْلَ الخليفة يقتدي برشادِهِ   وسَدادِهِ وتَبِينُ فيه سِماتُه

ورَدَ الزُّلالَ العذبَ في يَنبُوعِهِ   صفْواً مَعيناً لم تشبْه قَذاتُه

فهُناك أسّسَ بالتُّقَى بُنْيانَه   وهُناك شُيّد بالهُدَى حُجُراتِه

ولاه مرتبةَ الفَخار وُلاتُه   وبَنَى له المَجْدَ الطموح بُناتُه

وتقبّل الخُلُقَ الرضِي فانجحَت   أصْحَاؤهُ وتيسَّرَتْ طلباته

صبٌّ يوكَلُ بالوغَى أو بالنَّدى   لا تُرْتَجى من وجْده سَلْواتُه

ألِفَ الحُروب فلمْ يُجِلْ بعَهْدِها   والجِلُّ لا تُنسَى لَهُ حُرُماتُه

وإذا تذكَّرها أحدٌ نزاعُه   وحَبيبُه وتراصلتْ ذِكْراته

يُلهيه رَوْضٌ والقَنى دَوْحاتُه   والبِيضُ زهرٌ ، والدِّما شُقْراتُه

والسّابغَاتُ مواردٌ يشْفي بها   خَرُّ الصَّدَى وظلالُهُ رَاياتُه

في حيْثُ صوْتُ المَشْرَفيِّ مرجَّعٌ   يشْدُو فتطرب في الطُّلَى نغماته

ويهبُّ من رِيح الجلاد نَسِيمُها   فتَشُوبُه وتهدُّه هبَّاته

(1) أورد ابن عذاري عشرين بيتاً من قصيدة الشوائش البيان المغرب ص 47 - 48

تحْنُو عليه الحربُ إذْ كانَ ابْنَها   ربَّتْه من خَمْسِ الرَّغَى رِبَّاتُه

[114] فتقيه بادرةَ العوائِل والرَّدى   وتطيح بالموْتِ الزُّؤام عِداتُه

يا خيرَ مَن ملكَ الورَى ودعاهُمُ   لله فابتدرتْ لَهُ دَعَواتُه

جُوزيتَ بالحُسْنَى إذا ما مُحْسِنٌ   في فِعْلِه جوزيتْ لَه فَعَلاتُه

مَن يُصْغِ حبّك اسْعدتْ أحْواله   ومثالُه وتُقبِّلَتْ قُرُباتُه

مَنْ يقتدِي بكَ يهْتدي ، أو مَن يَرُم   سُبُلَ النَّجاة فأنتُمُ مَنْجاتُه

وتَهنّأ البُشْرى بأوبَةِ سيِّدٍ   قُرِنَتْ بأجْزَلِ نعمةٍ أوباتُه

نَحْلُ الهُدى وأخوكَ عزّتْ نسبةٌ   والمجدُ تقْصُرُ دونَها غاياتُه

في الله اعملَ سعيَه فحوتْ لَهُ   جمْعُ الفضائِلِ والعُلى مَسْعاتُه

سيفٌ بكفِّك مُصْلَتٌ تسطو به   ماضي الشَّبا لا تُتَّقى نَبَواتُه

نَذْبٌ أشمُّ الأنْف إن سُئِلَ الذي   لا يَرْتضي ثارتْ لَهُ أنفاتُه

سَهْلُ الجوانبِ راضياً ومواليا   وإذا تنكَّر أحزنتْ جَنَباتُه !

ساسَ الأنامَ فأمِلَت نعماؤه   ونوالُه وتُخُوِّفَتْ نقِماتُه

يَرْعى بحفْظِ كلاءةٍ وحمايةٍ   موصولةٌ في رَغْبِه يقظاتُه

أنتم لأهلِ الأرضِ أوثقُ عصمةٍ   وبأمركم عُطِفَتْ عليه حَياتُه

لا زلتُم للمَكرُماتِ ولِلعُلى   شمْلاً ، ولا يقضي عليه شتاتُه

وأستقبلوا في الدّهر عُمْراً باقياً   ما واصَلَتْ غدَواتِه رَوْحاتُه

وقال أبو عمر بن حربون يهنيء بالإياب من جبل الفتح ويمدح الأمير [115] أبا يعقوب والسيد أبا حفص ويغبط الأخوة بينهما : (وافر)

بأيْمنِ طائرٍ كانَ الإيابُ   وأنجح مطلب نَيْلَ الطِّلابُ

وكانتْ وجهَةٌ كَرُمتْ مَناباً   فقد شُكِرَ التوجُّه والمئابُ

إذا قضِّت مشاربَكم جميعاً   فما في سعْدِ طالِعها ارتيابُ

دلَفتُم بالأسودِ الى بلادٍ   ثوتْ جِحَجاً تعيثُ بها الذِّئابُ

أشبِّهُها غداةَ حَلَلْتُمُوها   بلاد الجذب حلَّ بها السَّحابُ !

فلولاكُمْ لقَدْ أضْحَتْ مواتاً   يُسَنُّ على تَرائبِها التُّرابُ !
فقد ألقى عصا العِمران فيها   وقوَّض رحْلَه عنها الخَرابُ
خَمعْتم من بَني قيْس شُعوباً   تَبيلُ بها المَخاني والشِّعابُ
تجانَسَ جَيْشُهُم لفْظاً ومَعْنىً   فهُم عَرَبٌ وخَيْلُهُم عِرابُ
تعاهَدْتُم مواطِنَ خيرِ أرْضٍ   مكرَّمَةٍ تشدُّ لَها الرِّكابُ
هو الحبلُ الذي للفَتح فيه   مخايلُ ما لصادقِها كِذابُ
به من نُور سيِّدنا أبيكُم   شعاعٌ ما يزال لَه التِهابُ
وشطْرَ المَغْرب الأقصى ثنيْتُم   أعِنَّتها كما زَخَرَ العُبابُ
وليس سموّكم كحبابِ ماءٍ   ولكن مثل ما يسْمو الحبابُ
أتتكُم كتبُهم مستصرخاتٍ   فطيِّر من كتائبكم جوابُ
يخطُّ من الصُّفوف به سُطورٌ   فيصعَرُ رفعةٌ عنه البَنانُ
فكم من ماردٍ هاجلتموه   كما يقَضُّ في الحرِّ الشِّهابُ
خَبَتُّم عاربَ الكفرانِ منه   بأمرٍ لا يطيرُ لَهُ غُرابُ
[116] وَلِيُّ العهدِ أُنجحَتِ المساعي   بيُمنِكم وأصحبتِ الصِّعابُ
وأُحكِمَت الأمور بما تَواصتْ   به الألبابُ والحُسُب اللبابُ
نُصرتم من أبي حفْصٍ أخيكم   بماضي الحدِّ تَعرفه الرِّقابُ
وقبلكُم اصطفى مُوسى أخاه   فشأنُهما وشأنُكما عُجابُ !
سَرى عنكم بنَحْرٍ مكفهرٍّ   يُصبُّ على العصاةِ به العَذابُ
تسير الشمسُ شيِّقَةً إليه   كأنَّ الطير بينهُما جِحابُ
تضمَّن رزْقَها فترى عُقاباً   من الرَّايات تتبعها عُقابُ
إذا رَكِبَ الوشيحُ على الهَوادي   فقد سجَدَت له الشُّمُّ الهِضابُ
عليه من سَراةِ بَني عَلِيٍّ[1]   عَليٌّ لا يُضافُ إليه غابُ
كَسُوب الحمد مِتلافٌ وَهُوبٌ   كمثل البَحْر يُرجى أو يُهابُ
كأنَّ النَّاس من خَطإٍ وأنتمُ   - أدام الله أمركم - صوابُ !

(1) يعني به علياً والد الخليفة عبد المؤمن. البيذق، أخبار المهدي ص 21 - 22 ابن عذاري ص 36

وأنتم[1] في مشاهدكم كُهُولٌ   وأنتم في موالدكم شَبابُ !
فمن يرجو بوَصفكم قياماً   وفضلُكم تضمَّنَه الكتابُ
فما يستطيع غايتكم حسيبٌ   ولا يَحوي فضائلَكُم حسابُ
أسيِّدنا أبا حفصٍ رِضاكُم   به يُرجى لدَى الله الثَّوابُ
ولَوْلا ما أؤمِّلُ من رِضاكُم   لَما سَاغَ الطَّعام ولا الشَّرابُ
أنا العبدُ الغريبُ وليْس يزري   بمن آواه ظِلُّكم اغتِرابُ
بعيدٌ أن يسيءَ إليَّ دَهْرٌ   نوائبُه بذكركُم تُنابُ

وقال أبو عمر أيضاً مرجعه من الجبل ، [117] يمدح السيد الأعلى أبا حفص وقد استكتبه على ما تقدم الذكر به[2] ويهنئه بزورة كعبة أخيه ويحثه

(كامل)

حُثُّوا المطيَّ فقد قضتْ أوطارها   واحْدُوا الى بابِ الأمير قطارها
وإن اشتَكت[3] أيناً فلا ترنو لها   حتّى تُحدث عنده أخبارها
لا تعذروها أو تحلُّ فناءه   فإذا حَلَلْتُم فاقبلوا أعْذارَها
واستوصلوا أعمالها وكلالَها   فالنُّفعُ في أن تشتكي أضرارَها
حتّى تزوروا كعْبَةَ الفَضل الّتي   قد أحسنتْ بركاتها زوّارَها
فإذا استلمتم بالسَّلامة ركنَها   فارموا بأخفاف المَطيِّ جِمارَها
هَا أنَّها صور الحكم نُزَّعٌ   قد هازَها من حُكْم ما صارها
بلغت رباطَ الفتح عُوجاً ظُلَّعاً   قد كان يستوي السرى أمّارَها[4]
وستغتدي تَغذَ الغُوُور جواحظاً   إن ملأت سقاتكم أنصارها
فاستشرَفوها كالسِّهام سَواهِماً   تطوي المهامه لَيْلَها ونهارَها
تطوي صحائف كل أرض صحصح   رسْمَ السُّرى بحروفها أسطارَها

(1) في المخطوط رأسم وهو لا يستقيم
(2) وذلك في صفحة 111 مع أبي الحسن الهوزني
(3) في المخطوط اشتكيت وهو لا يستقيم ولا يسوغ ذلك
(4) كذا في الأصل ولم نتبيّن معناه

ومتى شـذَا الحـادي لحُسن ثنـائِكم   طـارَتْ بـأجنِحَـة السُّرور مَـطارَهـا
صـدرَت عن الحَلّ المُبـارَك بَعْدَمـا   شُت سَعْـدكُم مـاك شعـارَهـا
واستقـدمتْ للرُّعـب كـلُّ كتيبـةٍ   شُت بـأرْضِ المُشـرِكين مَغـارَهـا
وقضَتْ بـأرض العـدوتَين مـاربـاً   تشكُـرَ الأنـامُ لفضلِكـم أنـارَهـا
[118] تسْري مصالحُها بسنّة صالح   إن لم تـرع فرقَ العصاة قُدارَها[1]
جهـزْتُم نحـوَ الأعـادي فيْلَقـاً   سحّـاب أذيـالِ القَنـا جَـرَّارَهـا
خـاوُوا تقدمهـا السُّعود طَـلائِعـاً   وتَـرَى مـلائكـة العُلَى أنصـارهـا
لبستْ بهـا شمسُ الـظُّهيـرة حُلّةً   خلط العجـاج لجينَهـا ونُضَـارهـا
فـتطلّعـتْ منْـه تـطلُّعَ عـادةٍ   تبْـدو وأحيـانـاً تـضمُّ خمـارَهـا
فكـأنَّ أرضَ الملحِـدِينَ لبـأسِكُم   ثكْلى تمـزِّقُ صَـدْرهـا وصِـرارَهـا
فتهنَّـؤوهـا دَوْلـةً « مـهـديَّـةً »   رفعتْ لأبصـار العِبـاد منـارَهـا
آيـا وذكـركُـم تـعـلّةُ لـوْعـةٍ   قـد أضرَمتْ بينَ الجوانِح نـارَهـا
والشّمـلُ متّصـلُ النِّظام بـدَعـوَةٍ   ميمـونـةٍ تـمْـتمتُـم أنـوارَهـا
فتنشّقـوا عَبْقَ التحيّـة نحـوكُـم   تهـدي اليكم وَرْدَهـا وعـرارَهـا
زارَتكُـم منهـا عجـالـةُ قـادمٍ   نظَمَتْ بِبشر لقـائِكم أشعـارَهـا

وقـال الكاتب أبـو عبد الله الشـاطبي[2] مهنئاً بـالإياب مـادحاً وهـو كاتب مجيد، ورجل مجيد، إلا أن سبب توحشه عن الناس وهم استغلب عليه فاستولى عليه بذلك الخمول والقعود . (طويل)

---

(1) قدار: ابن سالف الذي عقر ناقة الله آية صالح عليه السلام

(2) لم نعثر لما وجدناه عند البحث عن هذه الشخصية وإن كنا لا نستبعد أن يكون هو محمد بن عبد الرحمن بن ياسين الذي كان معدوداً من الفقهاء والأدباء والذي كان له حظ من قرض الشعر والمتوفى سنة 590 وقد نقل من شعره يهجو بلدته شاطبة:

شـاطـبـة قـريـة صـغـيـرة   لـيـسـت لمن آمهـا مُـعـيـبـة
تـخـتـصم الطّيـب اخـتـصـامـا   وتـألـف الـشـعـر أن تُـعـيـبـه
والخـبـث المحض تـضـطـفـيـه   ضِـداً لمـا جـاء في المـديـنـة!

زاد المسافر، نشر عبد القادر محداد ص 95

سـلامٌ كعَرْف الـرَّوض عبَّ قِطَاره   تَحِيـة مشتـاقِ الـفُؤاد مُـطاره
ونُشْرَى كما انشقّ الدُّجى عن صَباحه   ولاحَ هِـلالُ الفِـطر بعـد سِرَاره
بفـرٍ معين الـملك مِقـدَم سـادةٍ   يُـسـرُّ بمـرآهـم مَحَـلُّ قـراره
[119] لتَهنِ أبَا يعقوب غبطةُ أوْبةٍ   بصنْـويـهْ وافتْـه لحين انـتـظاره
أسيـرَان سَـلَّ الملك سيفيْـه منْهُما   عَلَى ثقـةٍ يـرجُـرهُمـا لانْتِصَـاره
بحيثُ أبـو حَفْصٍ وعُثمنَ بعْـدَهُ   تـلقّـاهُمـا للبِشْـرِ جبينَ بِـداره
عَميـداً سَناءٍ بَـلْ شِهابَـا سِيـادَةٍ   ومُلْكٍ أبـو يَعْقُـوبَ قُـطبُ مَـداره
يُباحُ الخَيالُ الحُسْنِ بين زهْـو خيلِهم   وليس بِـشُكْـرٍ مُسْبَـلٍ عن ازاره
وما يرْهب الأعـداء منْ حُسْنِ منظر   فمنْ خُلُقِ الإيمـان تَـركُ اختصـاره
لقَدْ صَدِيتْ من نَـاصر الأمر مُقْلَةٌ   لعُثمـانَ تَشْكُـو منْـه شحْط مـزارِه
فنـادتْ أبَـا حفْصٍ أخـاه لعزْمَـةٍ   كمِثْلِ اليَمَاني حُدَّ غربُ غِـراره
يُـواصِل ادْلاج السُّرى من ظلامِـه   بتـأويبِ سَيْـرٍ في سَرَابِ نَهـاره
وجـاءا ، كما سوّى جناحَيْه طـائِرٌ   إلى مُخْتشى الآمـال قصـد مَـطاره
بحيثُ استقرَّ العِلْمُ والحِلْمُ والهُدى   وحـلَّ بـه للدِّين حـامي ذمـاره
بِـهِ السَّعـد ممتـدٌّ وهَـديُ خِـلافَةٍ   هِيَ الـلاَّحِبُ الهادي بضَـوءِ منـاره
قـدِ اعتاضَهُ الـرَّحمن للخَلْق رحمَـةً   وأجْـرى لـه الأقـدارَ وفْق اختيـاره
حكتْ بيعةَ الرِّضْوان[1] بيعتُـه التي   بِهـا غُـزِيَ الإلحـادُ في عُقْـرِ داره
ألستَ تَـرى في النـاكثين وقـائعـاً   يمينُ الـرَّدى فيهـا كمِثْـلِ يَسَاره
تُـنَسِّي هِـلالاً حَـرْب ؟ يِسَـاره[2]   ويُنْسَى ابنُ مُـرّ ؟ وقْعِ يـوم حصاره[3]
حَصَائِدُ سَيْفِ الحقّ صَرْعى بشاهق   بـه ابن الـمُغْتَـرّ وَقْـع جـذاره

---

(1) يشير إلى البيعة التي تمت في صدر الإسلام على مقربة من مكة عند الحديبية فراجع ما كتبه المفسرون عن الآية الشريفة ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ سورة الفتح الآية 18. ابن جزي: كتاب التسهيل، المجلد الرابع

(2) لا شك أن هنا كلمة سقطت للناسخ توجد أثر كلمة هلال أو حرب

(3) يعني أن تلك الوقائع تذهل هلالاً وابن مر ... لكن مَن هو هلال؟ وابن مر؟ فهل هلال بن مردنيش؟ وهل الأخير ابن مريق؟ لم نهتد فعلاً للتأكد من قصد الشاعر

لقد عَمِيَتْ منْها البصائر شقْوَةً — أحلتْهُم للهلك دارَ بَوارِه

ولَوْ قَرعوا للصّفح أبواب توبَةٍ — لَهُ لم يخُوضُوا للرّدى في غِماره

[120] هُوَ الملك المَيْمُون طائرُه الشمى

إلى الشَّرَف الأعلى كريمُ نجاره

تُناديه للألباب مَوْرد حكمةٍ — يفجّرُه للفهمِ سِرّ اختياره

ومنْها :

هو ابنُ أمير المؤمنين أقامة — الى بثّ علم منذُ بدْء انتشاره

كذا الفرعُ يزْكو من أرومة أصله — وللفرع ما يوتى الجنَى من ثماره

بكم حُسْنَ الشّعر الذى راق نظمه — ولم يكُ إلا مدْحُكُم من شِعاره

له خجلُ التقصير في وَصف مجدكم — ولكنْ عُلاكم قابلٌ لاعتذاره

عسى الجُود يحظيه بصفْوة صافي — يشق على ذي السَّبْق شق غباره

ودونكها يا بنَ الإمام قصيدةً — من الأدب المنظوم بعد انتثاره

كما قرّنَ الآتي الى البيت حجّه — وشفّعه في نيّةٍ باعتِماره

وحسْبُكم هَذياً ثناءٌ عليكُمُ — بصفو ضمير لم يُشَبْ بسَمَاره

له كعبةٌ منكم تطوفُ بها المُنى — وحيثُ مُنى الإنشاد مرمى جماره !

ذكر العزم المؤيد من السيد الأعلى المجاهد الاسنى المرحوم أبي
حفص بن الخليفة رضي الله عنهم بالحركة السعيدة المنصورة
الى ابن مردنيش باتفاق ورأي الأمير ابي يعقوب رضي
الله عنه ، واجازته البحر بعسكره المظفر
ومنازلته بلاد ابن مردنيش مردفاً للشيخ أبي
سعيد[1] بن الحسين والشيخ [121] أبي
عبد الله[2] بن يوسف المتقدمين بالعرب
الى جزيرة الأندلس لحمايتها في
ربيع الأخر من عام ستين
وخمس مائة على ما تقدم
الذكر به في هذا التاريخ[3] وما دار في ذلك
من الفتح

قال المؤلف وأقام السيد الأعلى أبو حفص بمراكش بعد انصرافه من جبل الفتح ومعه أخوه أبو سعيد بقية شهر رجب الفرد وشهر شعبان كله ، وكان أبو سعيد بن الحسين وأبو عبد الله بن يوسف قد تقدما بعسكر العرب المذكور على ما تقدم[4] وبعثوا عند وصولهم إشبيلية منهم جملة مباركة نحو الخمس مائة فارس الى مدينة بطليوس لحماية ضيْقتها فيسر الله لهم غزو شرذمة ذميمة

(1) يعني أبا سعيد يخلف بن الحسين راجع التعليق رقم 1 ص 180.

(2) عوض هذه الورقة رقم 61 نجد في المخطوط المجلّد ورقة تحمل رقم 62 بينما هي في الواقع رقم 56، وتبتدىء هكذا «جمله حتى إلى الحضرة العليه المشتملة على العدل وعلى كل فضيلة ...» راجع التعليق رقم 4 ص 185 والمقدمة حول الخطأ الذى وقع فيه الذين جلدوا المخطوط ثم ان الشيخ أبا عبد الله بن يوسف ممن لم نجد لهم ذكراً في السفر ولا ضمن الرسائل الموحديه ولا في بقية المصادر الأخرى التي بين أيدينا فلعلّه ممن نفى عمن لم نوقف على أسمائهم ابن عذاري ص 48 - 49

(3) وذلك صفحة 105

(4) وذلك صفحة 121